الفينيقيون

هم من اقدم الامم عهداً واغمضها تأريخاً لا يكاد يُعرَف من امرهم الا الشيء القليل مما توحي بهِ آثارهم الباقية ومما انتهى الينا من صُحُف مؤرخيهم وان هو الا شذورٌ ناقصة مما كتبهُ سَنكُنيات احد كهنتهم في عصرٍ لا يُعلَم بالتحقيق وقد فُقد تاريخهُ الا لُمعًا مما تُرجم منهُ الى اليونانية على يد فيلُون البيبلوسي رواها اوسابيوس القيصري واكثرها في شرح عقائد الفينيقيين والمصريين

وقد اختلف المؤرخون في اصل الفينيقيين فقيل هم من العرب ابناء اسمعيل بن ابرهيم وقيل من ابناء كنعان بن حام وردوا فينيقية من ارض أشُّور لحيفٍ وقع عليهم هناك فنزلوا بالمكان الذي اختطّوا فيهِ مدينة صيداء وهي اول مدينةٍ فينيقية ثم انتشروا فيما يليها من الساحل الى شمالي طرابلس وجنوبي رأس الكرمل وما يلي هذه المسافة من البرّ الى سفح الجبل الشرقي وهي بقعةٌ لا تزيد على ١٢٥ ميلاً طولاً في نحو ٣٠ عرضاً وهي الموطن الاصليّ الذي نشأت فيهِ هذه الامة العظيمة التي ملأت آثارها ما بين الشرق والغرب ولا بدع مع ما اشتهر بهِ رجالها من الذكاء والاقدام ومع ضيق مضطرَبهم في تلك البقعة الصغيرة وانفساح البحر امامهم وكثرة ما في ارضهم من الاشجار الباسقة ان يكونوا امهر امةٍ في ركوب البحر وبناء السفن وتعاطي التجارة الى ابعد مكانٍ في المعمور

وكانت اشهر مدائنهم مدينة صور بُنيت على أثر مدينة صيداء فيما بُني

من المدائن الفينيقية من مثل بيروت وبيبلوس (جُبَيل) وانترادوس (طرطوس) وارادوس (ارواد) وطرابلس وغيرها الا انها لم تلبث ان فاقت تلك المدن باسرها وكسفت بهاء صيداء العاصمة الاولى ولم يأتِ عليها الا قرونٌ قلائل حتى اصبح البحر الرومي في قبضتها وانبثَّ رجالها في جميع السواحل الشرقية منهُ ثم تبسطوا في غربيهِ فانتهوا شمالاً الى غربي اسيا الصغرى فجزر اليونان والبحر الاسود وجنوباً الى نواحي تونس فابتنوا ثمة مدينة قرطاجة المشهورة وما يتبعها من المدن واجتازوا من هنالك الى اوربا فدخلوا جنوبي ايطاليا وصقليّة ثم سردينيا وكرسكا فبلاد الغال واسبانيا وتركوا في كل موضع انتهوا اليهِ طوارئ [1] منهم وأسسوا مدناً جعلوها مراكز لتجارتهم . ثم عبروا مجمع البحرين فخرجوا الى الاتلنتيك وجازوا شمالاً الى البلطيك وجنوباً الى الجزائر السعيدة ثم طافوا من حول رأس الرجاء الصالح وانبثت طوارئهم على شواطئ البحر الهندي واتخذوا من اليهود فُرضتين على شواطئ البحر الاحمر وابتنوا عدة مدن على شواطئ الخليج الفارسي منها مدينة باسم تيروس (صور) واخرى باسم أرادوس (أرواد) وغير ذلك

اما حكومتهم فلاسبيل الى معرفة ما كانت عليهِ بالتحقيق لكن يقال انها كانت في اوائل امرها نوعاً من الجمهورية الديمقراطية الا انها ولا بد كانت تحت سيطرة الكهنة لما كان لهم من السطوة والنفوذ . وكانت كل

(١) جمع طارئة وهي الجماعة تطرأ من ارضها الى ارض اخرى تعريب Colonie ولا بأس ان تطلق على الارض التي تتوطنها تلك الجماعة ايضاً من باب المجاز المرسل على حدّ استعمال اللفظة الافرنجية بالمعنيين

مدينةٍ من المدن الكبرى مع اعمالها جمهوريةً قائمةً بنفسها وكان بين تلك الجمهوريات الصغرى نوعٌ من التحالف وجآء في بعض التواريخ انهم كانوا يعقدون في كل مدةٍ مجلساً عاماً يُرسَل اليهِ نوابٌ من جميع تلك المدن يجتمعون في طرابلس

غير انهُ بعد ذلك استحالت تلك الجمهوريات فكان لكلٍ من مدينتي صور وصيداء ملكٌ يتولى امورها الا انهُ لم يكن مطلق الحكم ولعلهُ كان كذلك لسائر المدن الكبرى . واول من عُرِف من ملوك صور ابيبعل جلس على سرير الملك في اوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد وكان معاصراً لشاول ملك اسرائيل . ثم خلفهُ ابنهُ حيرام الاول تولى نحو سنة ١٠٥٠ وكان محالفاً لداود ثم لسليمان من بعدهِ وهو الذي ارسل الى سليمان الاستاذ حيرام ورجالهُ لبناء الهيكل المشهور باورشليم واطلق لسليمان ان يقطع ما شآء من ارز لبنان حتى اصبح خشب الارز في اورشليم « مثل الجمَّيز الذي في الصحارَى كثرةً » وجعل سفن سليمان مع سفنهِ فكانت تأتي ترشيش مرةً في كل ثلاث سنين وتقفل حاملةً ذهباً وفضةً وعاجاً وقِردَةً وطواويس . وفيما ذكر يوسيفوس ان صك الحلف بين حيرام وسليمان كان لا يزال باقياً الى ايامهِ بين سجلاّت مدينة صور

ومن ملوك صور أَتْبَعْل الاول ملك سنة ٩٣٤ وكان كاهناً من كهنة عشتاروت وهو ابو ايزابَل التي تزوجها احآب ملك اسرائيل ويُنسَب اليهِ بنآء عدة مدن بفينيقية . وممن ملك بعدهُ حفيدهُ پجْمَليُون سنة ٨٧٤ وكان من امرهِ أن كان لهُ صهرٌ واسع الثروة يقال لهُ سيخَاي وهو زوج

اختهِ ديدُون فطمحت نفسهُ الى الاستئثار باموال صهرهِ فذبحهُ بيدهِ على عتبة الهيكل . فلما رأت اختهُ ذلك خافت على نفسها فخرجت في جماعة من ذويها وهاجرت الى افريقيا وقيل انها هي التي بنت مدينة قرطاجة وكان ذلك نحو سنة ٨٦٠

ثم انهُ في سنة ٧١٨ اقبل شلمنصَّر ملك اشور ونزل بجيشهِ على صور بعد ما دوَّخ مملكة اسرائيل وحاصرها زمناً وكان ذلك على عهد أَليلاَّي فامتنعت عليهِ فاستولى على صيداء ومدنٍ اخرى . وفي سنة ٦٠٥ حاصرها بختنصَّر الثاني ملك بابل على عهد أَتبَعْل الثالث وقيل الثاني وافتتحها عنوةً بعد حصار ثلاث عشرة سنةً ووضع فيها النار ففرَّ اهلها الى الجزيرة المجاورة لها وهي صور الحاليّة وجدّوا في عمارتها وتوسيع حدودها فلم تلبث ان انتقلت اليها عزَّة سالفتها . الا ان خلفاء بختنصَّر لم يفتأوا يناشبونها القتال حيناً بعد آخر ورأى اهلها ان السلم اسلم فاعطوا بايديهم لملوك بابل واصبحت صور تابعةً لهم تؤدي الجزية . واستمرَّ الامر على ذلك الى ما كان من امر قورش واستيلائهِ على مملكة بابل فدخلت صور في نوبة ملوك الفرس وذلك سنة ٥٣٨ . ثم لما غزا الاسكندر مملكة فارس خضعت صيداء لسلطانهِ وملَّك عليها ابدولونيم من سلالة بعض ملوكها الاولين ولكن صور امتنعت من طاعتهِ فحاصرها سبعة اشهر حتى دخلها عنوةً واعانهُ على افتتاحها اهل صيداء اذ جهزوهُ بما يحتاج اليهِ من السفن وكان ذلك سنة ٣٣٢ . واذ ذاك انحطّت صور عن عزتها الاولى ولا سيما بعد ان بنى الاسكندر مدينة الاسكندرية فكانت محطةً للتجارة بين اوربا وآسيا وافريقيا واخيراً ضُمّت فينيقية الى

الجمهورية الرومانية سنة ٦٥ قبل الميلاد فلحقت بسائر البلاد السورية

هذا مجمل ما امكن الوصول اليهِ من تاريخ هذه البلاد ومنهُ يتبين ان الفينيقيين لم يكونوا اهل شوكةٍ وبأس وانما بلغوا ما بلغوهُ من الشهرة والغنى بما اوتوهُ من قوّة الذكآء والتفنن في الصنائع والاختراعات والاقدام على خوض البحار . وكانوا يحملون الى جزائر اليونان الموادّ العطرية والابازير والارجوان وآلات الزينة والملاهي وسائر المصنوعات النفيسة ويجتلبون من جزائر الاتلنتيك القصدير والكهربآء وكانت اذ ذاك اثمن من الذهب ومن ايبيريا الفضة والحديد والرصاص ومن البلاد العربية وافريقيا والهند الابنوس والذهب والعاج والحجارة الكريمة

ولبثت سفنهم منتشرة في جهتي الشمال والجنوب من شواطئ البحر الرومي وصلاتهم ممتدة في جميع جزائرهِ ومدنهِ الساحلية الى ان نبغ اليونان في التجارة فاخذوا يتخلون لهم عن النواحي الشمالية وينحازون الى الجنوب بما كان لهم من العلائق مع المصريين في عهد نخو ومع الاسرائيليين في عهد داود وسليمان ومع من لهم من الطوارئ الفينيقية في قرطاجة وما يقابلها من ارض اسبانيا واهملوا ما كان لهم من التجارة في البحر الاسود ولاسيما بعد اتصالهم بالهند واستيلآئهم على تجارتها . وكانت اكثر طوارئهم في اسبانيا في الجهة الجنوبية المعروفة اليوم بالاندلس وكانوا يقيمون بالناحية المسماة بترشيش أو ترسيس . ومن المدن المشهورة التي ابتنوها هناك قادس والجزيرة ومالقَة واشبيلية ومن مدنهم في افريقيا قرطاجة المذكورة بالقرب من تونس وقد وُجد فيها من آثارهم ما لا يُحصى وكذلك في سائر مدنهم

هناك كالحمامات ولبيد وغيرهما وذلك فضلاً عما لهم من المدن في جزائر البحر الرومي كقبرس ورودس وكريت وصقلّية ومالطة وسردينيا وكرسكا وبعضٍ من جزر اليونان ولهم في جميعها آثارٌ باقية الى اليوم

وكما كانت تجارتهم في البحر متسعةً الى مثل الحدود المذكورة فقد كان لهم مثل هذه التجارة في البرّ بواسطة القوافل فكانوا يرسلون بضائعهم جنوباً الى ارض الحبشة والحجاز واليمن وشرقاً الى بابل وما يليها الى آخر حدود آسيا وشمالاً الى بلاد الارمن ونواحي القوقاس وعلى الجملة فقد كانت في ايديهم أزمّة التجارة في الارض كلها ولم يكادوا يطأون ارضاً الا تركوا فيها اناساً منهم فانبثت عاداتهم وعباداتهم بين اكثر امم المعمور

(ستأتي البقية)

المؤتمر الطبي

(تتمة مقالات حضرة النطاسي الفاضل الدكتور صبحي بك[١])

اكتشاف طريقة لحلّ انعقاد الامعاء

لا يخفى ان هذه العلة كثيراً ما يعجز الطبيب عن شفائها وقد يفشل دونها امهر الجرّاحين . ولها اسبابٌ كثيرة لا حاجة الى تفصيلها هنا غير اني اقول انهُ مهما كان سبب الانعقاد ونوعهُ فهو يتضمن وجود عقدةٍ ذات طرفين هي اشبه شيءٍ بعقدة المشعوذ واذ ذاك فلا بد من الاحتيال لحلّ هذه

(١) انظر صفحة ٣٦٣ وصفحة ٤٠٠ وما يليهما

العقدة بدون ان يُلتجأ الى فتح البطن والتعرض لما فيهِ من الخطر ولا سيما وان حلها بطريقة الجراحة لا بد لهُ من معرفة مكانها اولاً وهذا يكون احياناً من اغمض الامور فيقف الجرّاح من دونهِ حائراً وكثيراً ما يضطرّ ان يعمل عملهُ على غير هدًى فيحتاج الى الاكثار من تقليب الامعاء وربما اصابت يدهُ الغشاء الصفاقي (البريتون) فينشأ عن ذلك ما يكون اشدّ خطراً من العلة نفسها

ثم افاض هنا في شرحٍ طويل ليس من غرضنا نقلهُ الى ان افضى الى بيان الطريقة التي استعملها فذكر انهُ جاءهُ في صباح ١٠ نوفمبر سنة ١٨٩٧ رجلٌ من اهل فاقوس كان مصاباً بهذه العلة ومعهُ طبيبان احدهما وطنيٌّ والآخر يوناني وكان الرجل صحيح البنية ليس فيهِ ولا في اسرتهِ شيءٌ من الامراض التي ينشأ عنها انسدادٌ في الامعاء وذكر لهُ الطبيبان انهما عالجاهُ بجميع الوسائط الدوآئية مدة خمسة ايام فلم يزدد المرض الا سوءًا

قال وكان قد اتفق لي ان دُعيت قبل ذلك لمعالجة مريض بالعلة نفسها فاستعملت لهُ طريقةً جديدة كُتِب لهُ فيها البرء على يدي فلم اتردد في استعمالها للمريض الآخر. وهي ان يؤخذ نحو ١٠٠٠ غرام من جذر القلقاس ويُنقَع في نحو ٣ ألتار من الماء الفاتر مدة ساعة حتى يحلّ ما فيهِ من المادة اللزجة وبعد ذلك توضع النُقاعة في محقنة من مثل التي تستعمل لغسل المعدة ويُدخَل انبوبها في طرف المستقيم ثم تُفتَح حنفيتها فينطلق السائل منها وبما فيهِ من اللزوجة يسهّل انزلاق الانبوبة في المستقيم ثم فيما يليهِ من الامعاء ومع الرفق في ادخالها يمكن ان تخترق مسافة طويلة من القناة الهضمية حتى

تبلغ صمام الاعور وقد استصنعت لهذا الغرض انبوباً يبلغ طولهُ ٣ امتار . ولتقوية فعل الحقنة وتسهيل انطلاق المعى يحسن ان يُعطى العليل في الوقت نفسهِ ١٥ غراماً من المسهل الالماني

ولا حاجة ان اقول اني قد صادفت هذه المرّة من نجاح هذه الطريقة ايضاً ما زادني برهاناً آخر على صحتها وحقق لي انها افضل علاجٍ لهذه العلة

***

طريقة علاج السرطان بالتلقيح الحيواني

لايخفى ان من اشدّ ما عُرّضت لهُ البنية البشرية هذا الخُراج المعروف بالسرطان فانهُ الداء العياء الذي وقف من دونهِ جهد الاطباء وذهبت كل مساعيهم سدًى . اجل لا انكر ان العمل الجراحي قد يكون طريقاً الى الشفاء لكنهُ في كثير من الاحوال لا يفيد الا اطالة عذاب العليل على غير جدوى

غير اني اعرض عليكم اليوم اكتشافاً توصلت اليهِ بتكرار المراقبة وبعد شغلٍ شاقّ ثابرت عليهِ مدة سنوات . وكان الذي نبهني الى ذلك اني حينما كنت اتمرّن في الصناعة في مستشفى سنت الوا كُلّفت يوماً ان اعطي الكلوروفرم لصبيةٍ في عمر ١٧ الى ١٨ سنة اصيبت بخُرَاج خبيث في ثديها الايسر. فلما اخذ منها الكلوروفرم طفقت تتكلم بكلام غريب فقالت وهي بهذي « يا لك من طبيبٍ قاسٍ .. انك تريد ان تنزع ثديي فلا اجد بعد انتباهي الا ثدياً واحداً . . فاذا اتفق لي ان اتزوج فماذا اقول لزوجي اذا سألني عن الثدي الآخر. . بأيّ حقٍ تستبيح نزعهُ اذا لم يكن في طاقتك

ان تخلفهُ عليّ . . أليس على من يكسر اناءً ان يغرمهُ . . . »

وعلى اثر هذا الكلام دخلت في الطور الثاني من الكاور وفرم فأسكتها عن المزيد غير اني قد اثرت فيَّ كلماتها تأثيراً شديداً ومذ ذاك جعلت وكدي ان ابحث عن ذريعةٍ يتمكن بها كل جرّاح ان « يغرم الاناء الذي يكسرهُ »

وبعد اشتغالي بهذا الامر عدة سنوات وُفقت الى الظفر بالمطلوب وذلك اني اهتديت الى صنف نادر من الكلاب لا يوجد في مصر ولا في اوربا الا انهُ سهل التبليد اذا أُحسنت العناية بهِ واصلهُ من الصين . ومزية هذا الصنف انهُ عارٍ من الشعر الا قليلاً فيُرَى جلدهُ املس ابيض اللون يشبه في مواضع منهُ جلد الانسان . ولما كان غرضي ان اعوّض ما يُقطع من الموضع المصاب بالسرطان كان تطعيم ذلك الموضع بجلد هذا الكلب من افضل ما يُستعمل لهذه الغاية لانهُ يمكن ان يتخذ منهُ جلدٌ صناعيٌّ حيّ

وكان اول امتحانٍ عمدت اليهِ اني دُعيت لمعالجة مريضةٍ بالسرطان قد اصيبت بهِ في ثديها الايسر وكان متقرحاً فأخذت من مِدَّة القرح ولقحت احد الكلاب على حد التلقيح بمادّة الجُدَريّ وصبرت عليهِ مدة ثلاثة اشهر فلم يتبين فيهِ شيءٌ من المرض . فأعدت عليهِ التلقيح مرةً اخرى فكان كالمرة الاولى ولم يظهر فيهِ اثرٌ للدآء فثبت عندي ان الكلب غير قابل لهذا المرض . اما العليلة فماتت بعد حين لان المرض كان قد استعزّ بها فلم يبقَ امل في شفآئها

وبعد ذلك عالجت امرأةً اخرى مصابةً بالسرطان في الموضع نفسهِ

فبعد بتر الثدي وازالة كل فساد طعَّمت موضع البتر بقطعةٍ من اذن احد الكلاب بعد ان فريتها على شكل مثلث تركت قاعدتهُ متصلةً بالكلب مدة ٤٨ ساعة لتسهيل التحام القطعة بصدر المرأة و بعد ذلك فصلت القطعة من جسم الكلب فتمّ الالتحام المذكور على ما ينبغي وشُفيت المرأة

ثم اجريت امتحاناً ثالثاً في امرأةٍ بالحال نفسهِ و بعد بتر الثدي طعّمت مكانهُ بقطعةٍ من بطن كلبةٍ اخذت معها احد أطْبآء (اثدآء) الكلبة مع حلمتهِ وقطعتها كذلك على شكل مثلث مع ترك قاعدتهِ متصلةً ببطن الكلبة ثم فصلتها من جسم الكلبة كما فعلت في المرة الاولى

ومن غريب ما يُذكر هنا انهُ بعد ان تمّ شفآء المرأة لم تكد تظهر بين جلدها والجلد الجديد ندبةٌ في موضع الالتحام . ثم انهُ في المواعيد الشهرية كان الثدي المطعّم ينتفخ ويزرقّ كالثدي الآخر الطبيعي . وهنا محل بحثٍ فيما لو حملت هذه المرأة وولدت هل كان هذا الثدي مع توفر غدَّتهِ يفرز لبناً وهذا ما لم يتسنَّ لي ان اتتبعهُ لاني لم اعد أرى المرأة ولا اعلم مكانها . انتهى باختصارٍ وتصرفٍ قليل

التخدير بالكهربائية

امتحن الدكتور اسطفان لدُوك ما للكهربائية الخفيفة المتقطعة من الخصائص الفسيولوجية والعلاجية وما يؤثر المجرى الكهربائي في الدماغ فثبت لهُ انهُ كلما كان المجرى اضعف كان اشدّ اختراقاً ونفوذاً وانهُ اذا عُرّض الحيوان لفعل المجرى الكهربائي امكن ان يؤثر في دماغهِ من حيث

الوظائف ومن حيث الاغتذآء فترتب على ذلك انهُ يمكن ان تعالج العلل الدماغية بتسليط المجرى الكهربآئي على الدماغ مباشرةً

ولا محل هنا لوصف الآلة الكهربائية التي استخدمها لهذا الامتحان وتفصيل العمل بها غير انا نقول انهُ رتّب المجرى على ان يكون تقطُّعهُ بين ١٥٠ و ٢٠٠ مرة في الثانية . قال ولتحقيق هذا الاختبار يؤخذ كلبٌ أو ارنب ويُحفى شعر رأسهِ حتى يُبلَغ الجلد ثم يوضع هناك موصل يتخذ من القطن مبلولاً بمحلول فاتر من كلورور الصوديوم على نسبة ١ ٪ ويغطى بصفيحة معدنية ويثبَّت الكل بواسطة كمامةٍ تُشَدّ في رأسهِ ثم يناط بهذا الموصل القطب السلبي من الرصيف ويُجعل القطب الايجابي على ظهر الحيوان من لدن مؤخرهِ بعد ان يُفعل بالموضع مثل ما ذُكر . وهكذا فبعد ان تمرّ الدائرة الكهربائية في جسم الحيوان ويحرك المقطّع تُدار يد الآلة بسرعة ويقوّى المجرى الى ان يتشنج الحيوان تشنجاً عاماً واذ ذاك يسقط مضطجعاً على احد جانبيهِ ويبطل تنفسهُ فتخفَّف قوة المجرى تدريجاً الى ان يعود التنفس . وفي مدة التشنج يستفرغ الحيوان كل ما في امعآئهِ ومثانتهِ تقريباً وبعد ان يعاد اليهِ التنفس يُرى ان القلب ينبض نبضانهُ القانوني لكن الحيوان يلبث مضطجعاً كما كان فاقداً كل حراك فيمكن ان يُقرَص أو يُوخَز أو يجرح ولا يبدو منهُ ردّ فعل ولا صوت ولا حركة دفاع أو محاولة للهرب ما خلا بعض حركاتٍ منعكسة تكون في غاية الخفآء في الكلاب ولكنها تكون قويةً في الارنب

اما وظائف الدماغ فتكون مفقودةً بتمامها ويكون الحيوان في رقادٍ

ثقيل وفي حالة خدرٍ كامل ويستمرّ نائماً كذلك مدة ساعتين أو اكثر نوماً متصلاً و بعد ذلك يستيقظ بغتةً ثم يقف على قوائمه ويثب و يمرح كعادته . ويظهر ان هذا الامتحان لا يسبب لهُ شيئاً من الالم لانهُ لا يصرخ اقل صرخة ولا يظهر منهُ ادنى حركة تململ ولا ينفر ممن فعل بهِ ذلك كما انهُ لا يبدو منهُ ادنى خوفٍ أو تهيؤٍ للهرب في مدة تجهيزهِ للامتحان . وبهذه الواسطة يمكن ان تشنَّج عضلات عضو كامل من الانسان بدون ان يحدث لهُ ادنى ألم

ثم انهُ اذا اطيلت مدة تأثير المجرى الكهربائي على الحيوان بحيث تلبث اعضاء التنفس متشنجةً مدة طويلة حتى يحدث الموت الظاهر فانهُ بعد دقائق كثيرة من موتهِ الظاهر يمكن ان يعاد الى الحياة بأن يُجعل المجرى متقطعاً بما يقرب من تقطع النَفَس فيكون ذلك من افعل الوسائط في انشاء التنفس الصناعي ولذلك كان هذا مما يجب اجراؤهُ في حال الموت بالكهربائية والكلوروفرم والغرق ونحو ذلك

وقد تقدم ان الامعاء والمثانة تتفرغ بواسطة هذه المجاري المتقطعة فيمكن والحالة هذه ان تُستعمل في معالجة ضعف الامعاء . ولكن اهمّ ما فيها من الخصائص احداثها للنوم والخدر العامّ وهذا ولا ريب من الامور العظيمة الفائدة في احوال شتى اخصها ما نراهُ من عذاب الحيوان عند الذبح كالبقر والخنزير وغيرها مما لا يمكن ان يشاهدهُ انسانٌ الا يتوجع شفقةً على هذه الحيوانات فاذا خُدّرت بهذه الواسطة امكن ان يُتفادى في ذبحها من هذه القسوة وتُعفى من الآلام التي تقاسيها في الذبح المعتاد

التاريخ والشعر

بقلم حضرة الاستاذ الفاضل عيسى افندي اسكندر المعلوف

(تتمة ما سبق)

وقد تقدم ذكر البيتين اللذين ضمَّنهما ثمانية وعشرين تاريخا لفتح عكاء على يد المرحوم ابرهيم باشا وطريقة استخراج هذه التواريخ منهما مشهورة فلا حاجة الى الاطالة ببيانها . فلما وقف عليهما ابرهيم باشا طلب من شيخنا ان ينظم لهُ قصيدةً يعارض بها قصيدة الشيخ شاكر النحلاوي التي مدح بها استاذهُ الشيخ عبد الغني النابلسي فنظم قصيدتهُ التاريخية المشهورة ومطلعها

الزهر تبسم نوراً عن اقاحيها　　اذا بكى من سحاب الفجر باكيها

فأُعجب بها الوزير اشد الاعجاب واجازهُ بعشرة آلاف غرش وخاتم من الياقوت . وهذه القصيدة من معجزات الشعر فانها مع التزام التاريخ في كل شطر منها قد اودعها من البدائع والاختراعات مع السلاسة والانسجام ما لا يتاتى لكثير من الشعرآء بدون التاريخ وذلك كقولهِ منها

يقول قومي رُوَيداً قد سقمتَ هوًى　　فقلت مهلاً شفآءي من نواحيها

لعلَّ صافي نسيمٍ من خمائلها　　اتى يهبُّ على روحي فيشفيها

ولا حاجة الى التنبيه على ما في هذين البيتين من الرقة وحسن السبك والخلوّ عن التكلف . وقولهِ

راق الدلال لها والذلُّ لي ابداً　　ولم يَرُق كأس وِردي من تدانيها

دمعي ومبسمها الدرُّ الثمين صدًى　　لمهجتي فبصبر القلب ارويها

وقوله

ان العيون التي بانت لطائفها　لها خفآء معانٍ ليس ندريها
طلاسمٌ سحرها المرموز طالعةٌ　اشكالهُ في سطورٍ حار قاريها

وقد احسن في البيت الثاني ما شآء بذكر الطلاسم والسحر والرموز والاشكال وكل ذلك من التوجيه مع مراعاة النظير في البيت كلهِ . وقال بعد ذلك

لواحظٌ لحُنَ في زيّ الحداد لكي　يُبرزنَ حزناً على قتلى روامِيها
الناهبات البواكي المبكيات فقد　كفّت عقول البرايا عن معانيها

وقال في التخلص

رماحكم يا كرام الحيّ لا تقفوا　ولا ترُعكم بَلى جدّت داوهيها
كل البلايا من الدنيا متى نزلت　بنا فنيران ابرهيم تفنيها

ثم قال

نارٌ ونورٌ متى قال النزالُ لهُ　والجودُ هاتِ يداً لم يُلقَ ثانيها

ولا يخفى ما في هذا البيت من الطيّ والنشر مع الاستخدام وذلك ان النزال يرجع الى النار المذكورة في اول البيت والجود يرجع الى النور . وقولهُ هاتِ يداً اليد بالنسبة الى النزال بمعنى القوة وبالنسبة الى الجود بمعنى النعمة . وقولهُ ثانيها بالنسبة الى المعنى الاول بمعنى من يثنيها أي يردّها وبالنسبة الى الثاني بمعنى الثاني في العدد وهو الذي يأتي بعد الاول . وقال بعد ذلك

بنى من العزّ بيتاً دون اعمدةٍ　سوى قناةٍ لهُ عزّت مبانيها
اللوذعيُّ العزيز الباسل الملك اُل　غازي الملا بيدٍ حسبي اياديها
للسيف والرمح والاقلام قد وُلدت　راحاتهُ ولسؤّالٍ تفاجيها

غازٍ مهيبٌ حسيبٌ ماجدٌ نجبٌ صافي الصفات نفيس النفس زاكيها
اقوالهُ خُطَبٌ افعالهُ شُهُبٌ آرآؤهُ قُضُبٌ بالله حاميها

ولا يخفى ما في هذه الابيات من الجناسات والانواع البديعية مما يطول استيفاء الكلام عليهِ فضلاً عما في جميعها من نباهة المعاني وجزالة الالفاظ وانسجام التراكيب وقس على ذلك سائر ابيات القصيدة . ولهُ قصيدةٌ اخرى من هذا النوع مدح بها ساكن الجنان السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٣ مطلعها

قف بالمطايا على انجاد ذي سلمِ وقل سلامٌ على دامٍ في الخيمِ

وقد نسج كثير من بعدهِ على منوالهِ كولديهِ العلّامة الشيخ ابرهيم صاحب هذه المجلة والمرحوم الشاعر العالم الشيخ خليل وكالمرحومين الشاعرين شاكر افندي شقير وسليم بك تقلا وغيرهم

والتأريخ انواع كثيرة عدّد بعضها المرحوم الابياري في كتابهِ سعود المطالع فمن اراد استقصاءها فليراجعها هناك ومنها نوعٌ يسمى الجوهر وهو ما حُسبت فيهِ الحروف المعجمة فقط مثل قول الشيخ عبد الباقي العمري شاعر العراق رحمهُ الله من ابيات

تألّقَ نجمٌ فاق في الوصف كيوانا كسا وضعهُ هام الاركام تيجانا
١٢٦٣ ١٢٦٣

واغرب ما اطّلعت عليهِ من القصائد التاريخية ما نظمهُ الشيخ محمد قبادو التونسي مشطّر قصيدة بشر بن أبي عوانة الشهيرة وقد رفع قصيدتهُ الى ساكن الجنان السلطان عبد المجيد ويُستخرَج منها الوف من التواريخ لسنة ١٢٧٦ ه ويتولد منها قصيدة اخرى يستخرج منها كثيرٌ من ذلك مما

يدلّ على قوّة عارضة هذا الشاعر. والأُمّ هي ستة وثلاثون بيتاً والمولدة ثمانية عشر اذ يخرج من كل بيتين من الامّ بيت من المولدة ومطلع الأُمّ

خير حامٍ مجدٍ مجير العبيدِ حاط خيراً مجرًى لعبد المجيدِ

حاطهُ عن عثار جعدٍ برجفٍ منتجٍ جحد عرف ربق العهودِ

واما مطلع المولَّدة فهو

خير حامٍ مجير عبد المجيدِ عن عثارٍ برجف جحد عهودِ

وتُستخرَج هذه التواريخ منهما على طريقة استخراج الثمانية والعشرين تاريخاً من بيتي شيخنا المقدَّم ذكرهما في فتح عكآء وذلك ان كل شطرٍ برمتهِ تاريخ ومهمل كل شطر مع مهمل غيرهِ أو معجمهِ تاريخ وكذا معجم كل شطر مع معجم غيرهِ أو مهملهِ فتحصل هذه التواريخ من ضم المهمل والمعجم من كل شطر الى ما في سائر الشطور على التوالي . وقد استخرج ألفاظ القصيدة الثانية من نفس ألفاظ الاولى وميزّها بالحبر الاحمر بحيث اذا قُرئت الكلمات الحمرآء وحدها من القصيدة الاولى خرجت القصيدة الثانية ولايخفى ما يقتضي ذلك من طول الباع في صناعة النظم والاقتدار في حساب التاريخ

وبالجملة فانهذا الفن دقيق يجب ان توضع عليهِ يد السلاسة والانسجام بحيث تكون كلمات التأريخ مستقلَّة بالمعنى مرتبطة بلفظة التأريخ خالية من الضرورات والجوازات الشعرية ولاسيما مثل ما يحتمل وجهين اذ يقع فيهِ التباس . ويجب ان تعتبر فيهِ الصورة اللفظية بحيث تحسب الالف المقصورة يآءً حيثما وقعت والهمزة حسب الحرف الذي تكتب بهِ وان كانت بدون حرف فلا تحسب شيئاً . والتـآء المربوطة تحسب كالمبسوطة الآ اذا وُقف

عليها فتحسب هاءً . والحرف المشدَّد يحسب واحداً وهمزة الوصل تحسب الفاً وان سقطت لفظاً الى غير ذلك مما اصبح مألوفاً فلا ينبغي الخروج عنهُ .

واذا كانت الكلمات المؤرَّخ بها قليلة تقرب من الاجادة اكثر واحسن التواريخ ما كان شطراً أو شطراً وكلمة أو كلمتين وربما جاء التأريخ بيتاً كاملاً فيجب ان يشار اليهِ في سابقهِ

اما طريقة نظم الثمانية والعشرين تأريخاً في بيتين فهي ان تنصّف السنة المراد تأريخها فتجعل كل شطر من الابيات نصفين يكون مجموع جمَّل معجمهِ نصفاً ومجموع المهمل نصفاً آخر وهكذا تفعل بالاشطر الثلاثة ثم تستخرج التواريخ الثمانية والعشرين على الطريقة التي تقدم بيانها . انتهى

متفرقات

جبن البطاطة — هو من المصنوعات المحدثة اول من امتحنهُ جماعة من اهل الزراعة في البلجيك وألمانيا فحققوا جودتهُ ونفعهُ وصِفة صنعهِ على ما يأتي

تُختار رؤوس من البطاطة من اسلمها وانقاها لوناً واكبرها حجماً وتُسلَق ثم تُهرَس حتى تصير عجينة متماثلة الاجزاء ويضاف الى هذه العجينة مقدار من اللبن الرائب على نسبة ١ من اللبن الى ٥ من البطاطة ثم تُعجَن به حتى يمتزج اللبن بالبطاطة امتزاجاً تامّاً و بعد ذلك توضع العجينة في وعاء وتغطى وتترك مدة اربعة او خمسة ايام ثم تؤخذ وتُعجَن ثانيةً وتوضع في

قوالب من الخزف المدهون او الخشب وتُترَك في الظل مدة خمسة عشر يوماً حتى تجف

والجبن المصنوع بهذه الطريقة لذيذ الطعم وكلما طالت الايام عليهِ ازدادت جودتهُ ويمكن ان يبقى على طراءَتهِ ورطوبتهِ اذا جُعل في اناءِ مسدود في محلٍ جافّ مطلق للهوآء

اسئلة واجوبتها

القاهرة — ارجو الجواب على السؤالين الآتيين

(١) قرأت في مجلة المشرق الجزويتية انكم تقولون ان ما يُجمَع من فعْل الساكن العين على أفعال اربع كلماتٍ فقط وقد بحثت في جميع مظانّ هذه المسئلة في البيان والضيآء فلم اجدها فما هي هذه الكلمات

(٢) جآء في اقرب الموارد في مادة (ع ت د) مانصهُ « العتيدة طبل العرائس أُعتدت لما تحتاج اليهِ العروس من طيبٍ واداة وبخور » الخ . وقد نظرت في مادة (ط ب ل) فلم اجد « طبل العرائس » لكن وجدتهُ ينقل عن الاساس ما حرفيتهُ « اذى اهل مصر طبلاً من الخراج وطبلين وطبولاً اي نجماً » فزادني اشكالاً آخر لاني لم افهم شيئاً من كلام صاحب الاساس

وجآء في مادة (ه ر ج) « انهرج فلانٌ من النبيذ بلغ منهُ وأُنهك » وقد راجعت في مادة (ن ه ك) فلم اجد الا قولهُ « انهكهُ السلطان بالغ في

عقوبتهِ » فهل هذا هو المقصود في تفسير « انهرج » وكيف يقال ان النبيذ بالغ في عقوبة الرجل . فارجو بيان هذه الامور كلها ولكم الفضل

ارنست ابو طاقية

من متخرجي مدرسة اليسوعيين بالقاهرة

الجواب — امّا المسئلة الاولى وهي ما روتهُ عنا مجلة المشرق فلا علم لنا بها وانما هي من الصدق الجزويتي المعهود . . . والحمد لله انكم بحثتم في جميع مظانّها من كلامنا فلم تجدوها ولكن من لا تندى صفحتهُ من التكذيب لا يبالي باختلاق الاكاذيب . وهذا مثل زعمهم اننا غلَّطنا كتّاب الجرائد في استعمال بارَح مكان بَرِح وقد لغطوا في هذه المسئلة وخلَّطوا الى ما لا مزيد عليهِ . والصحيح اننا لم نغلّط في ذلك احداً ولا ورد لهذه اللفظة ذكرٌ في الكلام على لغة الجرائد ولكنّا سئلنا عن هذا الاستعمال ايام كنا نكتب في البيان فاجبنا عليهِ بما حضرنا وهذا نص السؤال والجواب

« طرابلس الشام ـ نرجو الافادة عن كلمتي بارَح وبَرِح هل يقال بارَح الرجل مكانهُ ام بَرِحهُ واي اللفظتين اصح في الاستعمال ميشال غرّيب »

« الجواب ـ المنصوص عليهِ في كتب اللغة بَرِح المجرَّد ولم نجد بارَح في كلامٍ قديم وكانهُ محمولٌ عند من يستعملهُ على نحو فارَق وزايَل وغادَر كما حمل المتنبي تقصَّدهُ على تعمَّدهُ في قولهِ

تقصَّدهُ المقدار بين صحابهِ   على ثقةٍ من دهرهِ وامانِ

وفي كلام المولدين شيءٌ كثير من امثال ذلك الا ان اجتناب مثل هذا الاستعمال مع وجود المندوحة عنهُ اولى» . انتهى بالحرف فليتأمل المنصفون

واما « طبل اقرب الموارد » فالمراد بهِ الرَّبْعة وهي سلةٌ مغشاة بالجلد يُجعَل فيها الطيب وانما اهمل ذكره بهذا المعنى في مادة (ط ب ل) لان صاحب محيط المحيط رحمهُ الله سها عن ذكرهِ هناك وقد نبهنا غير مرة الى ان هذا الكتاب نسخةٌ عن ذاك

واما قولهُ « اذى اهل مصر طبلاً » الخ فصوابهُ « ادّى » بالدال المهملة مشدّدةً فابدل التشديد بالإعجام لمشاكلة بقية الكتاب . . .

واما قولهُ في تفسير انهرج « بلُغ منهُ وأُنهِك » فصوابهُ « انهكّ » بتشديد الكاف وبناء الفعل للمعلوم وهو مطاوع هكّ من قولهم هكّ النبيذ فلاناً اذا بلغ منهُ كما تجدون ذلك في الكتاب نفسهِ في مادة (ه ك ك) وان لم يذكر مطاوع هذا الفعل هناك وهو مذكور في لسان العرب

آثار ادبيّة

تراجم مشاهير الشرق ـ صدر الجزء الثاني من هذا الكتاب تأليف حضرة الفاضل جرجي افندي زيدان صاحب مجلة الهلال الغرآء وهو يتضمن تراجم اشهر العلماء والادباء والشعرآء والكتاب ممن نبغ في القرن التاسع عشر . وقد تصفحنا بعض تلك التراجم فوجدناها حسنة التنسيق وافية ببيان مقامات المترجَمين على غير غلوٍّ ولا اجحاف مع ذكر ما انفردوا بهِ من المزايا الشخصية والعلمية والاشارة الى مكانهم من النهضة الحالية وتعديد مؤلفاتهم واعمالهم وسرد ما اتفق لهم من الحوادث اخذاً عن اوثق المصادر وامثل الروايات

والكتاب يشتمل على ٤٤ ترجمة مصدَّراً اكثرها بصور اصحابها وهو جيد الورق والطبع يقع فيما يزيد على ٢٤٠ صفحة كبيرة . فنحث ارباب المطالعة على مقتناه وهو يباع في مكتبة الهلال بالفجالة وثمنهُ ١٥ غرشاً مصرياً او ٤ فرنكات واجرة البريد نصف فرنك

جدول تحويل العملة ـ اهدى لنا حضرة الاديب ابرهيم افندي زيدان نسخةً من جدولٍ مطوَّل سرد فيهِ انواع النقود المصرية والفرنسوية والانكليزية والسورية والاميركانية مع تحويل بعضها الى قيم بعض وختمهُ بجدولين لتحويل الموازين الشرقية والافرنجية . ولا يخفى ما في هـذا الكتاب من الفائدة الكبيرة لاصحاب المعاملات من التجار وغيرهم وهو يطاب من مكتبة الهلال ومن سائر المكاتب المشهورة وثمنهُ خمسة غروش مصرية واجرة البريد غرش واحد

جرائد حديثة ـ وافتنا عدة جرائد عربية أُحدثت في هذا العهد منها جريدة « الإمام » لحضرة صاحبيها ومحرريها الفاضلين محمد بك ابو شادي مدير الجريدة ومحمود افندي واصف . وهي سياسية علمية ادبية قضائية تجارية تصدر في القاهرة مرة في الاسبوع وقيمة اشتراكها ٨٠ غرشاً مصرياً

ومنها جريدة « الصيحة » لحضرة صاحبها ومحررها ومدير سياستها محمود افندي الشاذلي وهي سياسية ادبية عمومية تصدر في مدينة طنطا مرة في الاسبوع وقيمة اشتراكها ١٠٠ غرش

ومنها جريدة « القليوبية » وهي علمية ادبية اخبارية فكاهية لحضرة

صاحبها ومديرها محمد افندي زكي الاتربي تصدر في ميت غمر مرة في الاسبوع وقيمة اشتراكها السنوي ٢٥ غرشاً في القطر المصري و٣٠ في الخارج

ومنها جريدة « القاهرة» وهي وطنية اجتماعية عمرانية مديرها حضرة بشير افندي يوسف وصاحب امتيازها نديم افندي الكواكبي وهي تصدر في القاهرة مرتين في الشهر وقيمة اشتراكها ٣٠ غرشاً

ومنها جريدة « السودان » وهي سياسية ادبية تجارية مديرها ومحررها حضرة محمود افندي القباني تطبع في مصر وقيمة اشتراكها السنوي ١٠٠ غرش في مصر والسودان و٤٠ فرنكاً في غيرهما

ومنها جريدتان باسم « الاقبال » احداهما علمية تاريخية أخبارية فنية لحضرة صاحبها ورئيس تحريرها عبد الباسط افندي الانسي تصدر في مدينة بيروت مرةً في الاسبوع وقيمة اشتراكها في بيروت ولبنان ريالان مجيديان وفي الولايات المحروسة ريالان ونصف وفي سائر الجهات ١٥ فرنكاً

والثانية سياسية ادبية تجارية حقوقية لحضرة صاحبيها يوسف افندي صليبا وغصن افندي غصن وهي تُطبَع في لورَنس ماس من الولايات المتحدة وقيمة اشتراكها السنوي ثلاثة ريالات اميركية في الولايات المتحدة وكندا والمكسيك وثلاثة ونصف في غيرها

فنثني على همم أولئك الافاضل في خدمة العلم والحضارة ونرجو لجرائدهم مزيد الرواج والانتشار

فكاهات

الرسالة المفقودة [1]

كانت الجنود الانكليزية كما يعلم الجميع تحارب كتفاً الى كتف مع الجنود المصرية في اراضي السودان لاسترجاعهِ ولكنها كانت مع هذه الموافقة والمخالطة سائرةً على نظامها الخاص تحت امرة قواد مخصوصين مرجعهم الى حكم السردار . وكان في بعض الفرق الانكليزية صديقان حميان من لندن يدعى احدهما هرجر والثاني فلكونر كانا من الاسر الغنية فدخلا المدرسة الحربية معاً واتقنا الفنون العسكرية ولما بلغهما ان الحرب دارت رحاها في صحاري السودان سوّلت لهما النفس يدخلا هذه المعمعة علهما يصيبان شيئاً من اكاليل الغار فجعلا يتوقعان الفرصة الى ان دعت الحال الى استقدام عساكر انكليزية جديدة من انكلترا فكان نصيبهما ان جآءا هذا القطر وهما يعللان النفس و يعدانها بالفوز والارتقاء

وكان حظ هرجر اكثر مساعدةً من حظ رفيقهِ فارتقى الى قيادة فرقتهِ وجُعل فلكونر ثانيهُ في نفس الفرقة غير ان هذا التميز لم يكن لهُ تأثير بينهما الا في الموقف العسكري اما في الاوقات الاخرى فكانا اخوين لا يفترقان . وكانا يتوقعان قدوم البريد الاوربي بكل اشتياق فاذا جآء اخذ كلٌّ ما يخصهُ من الرسائل وذهب الى خيمتهِ فلا يعود يراهُ رفيقهُ الى الصباح . ولم يكن جميع ما ذكر دليلاً على صدق الوداد وصفآء القلوب بين الاثنين فلو تأمل الناظر فيهما وهما مجتمعان يتحدثان لوجد في اعينهما غشآءً يغطي ما ورآءهُ من هيجان براكين مندفعة من القلب وانهما كخيول الرهان تعيش في اسطبلٍ واحد ويحن بعضها الى بعض الى ان تجيء ساعة السباق فينسى الواحد صاحبهُ بل يتمنى لهُ الهلاك كي لا يبلغ الغاية قبلهُ

---

(١) معرّبة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

وحدث في شهر مايو سنة ١٨٩٦ ان اقتربت الجيوش الانكليزية والمصرية من عكاشة وكانت الدراويش مستولية عليها فخطط السردار طريقة الهجوم واصدر الاوامر اللازمة لقواد الفرق واستعد الجميع لمناشبة القتال في الغد . وعند منتصف الليل استدعى القائد هرجر ثانيةً فلكونر وقال لهُ خذ مئة فارس واذهب بهم الآن الى الجهة الشرقية من عكاشة وتربصوا فيها الى الصباح حتى اذا ابتدأت المعركة بيننا وبين رجال المهدي توافونا من تلك الجهة فيكون لجناح الجيش منكم سندٌ عظيم . فقال فلكونر وقد ظهرت على وجهه علامات الاستغراب أصحيحٌ ما تقولهُ يا هرجر ام انت تمزح . قال لسنا الآن في موقف مزاح بل في وقت اعطاء الاوامر العسكرية . فقال فلكونر لا يخفى عليك ايها العزيز ان الارض مجهولة منا تماماً ولم يسبق ان ارسلنا فيها طلائع فربما تقودنا خطواتنا توًّا الى حيث تكمن الدراويش فنقع في ايديهم غنيمة باردة . ولا اقول ذلك ضنًّا بحياتي او خوفاً من الموت ولكن لا ارى من الحزم ان يُسمح بقتل مئة فارس يحتاج اليهم في موقفٍ اهم ولغايةٍ انفع . فقطب هرجر حاجبيهِ وقال ربما كان هذا رأيك يا فلكونر ولكنهُ غير رأيي انا وانما اعلم شيئاً واحدًا وهو انهُ لو كنت انت رئيسي والقيت عليَّ اوامرك لما تأخرت دقيقة واحدة عن العمل بموجبها . فصمت فلكونر هنيهةً جالت في اثنائها افكار كثيرة في رأسهِ ثم حيَّا التحية العسكرية وقال امرك مطاعٌ يا مولاي فانا ذاهب . وبعد نصف ساعةٍ من هذه المقابلة كان فلكونر في طليعة المئة الفارس يقودهم في الظلام الدامس وهم لا يدرون شيئاً من امرهِ بل لم يدرِ فلكونر نفسهُ الى اين تقودهُ قدماهُ فادار وجههُ الى جهة انكلترا مسقط رأسهِ وتنهد من كبدٍ حرَّى واستأنف مسيرهُ

وكانت جيوش الظلام الحالك تنهزم امام طلائع نور الشفق الى ان بزغ الفجر فجعل فلكونر منظارهُ على عينيهِ فرأى في النقطة التي امرهُ هرجر بالمسير اليها عددا غفيرًا من الدراويش قد غطى كل تلك البقعة لكثرتهِ وعلم انهم اذا رأوهُ ورجالهُ فلا بد من هجومهم عليهِ وحصد تلك الشرذمة الصغيرة في لحظة من الزمن فامر فرسانهُ بالوقوف واخذ ورقة وكتب عليها الى القائد هرجر يعلمهُ بما رأى وبخطر الموقف

وانهُ سيلبث في النقطة التي بلغها الى ان يصلهُ امرهُ بالرجوع لانهُ يستحيل التقدم بعد . ثم اعطى الرسالة الى احد اعوانهِ وامرهُ ان يرجع بها الى القائد بمنتهى السرعة ويعود بالجواب . فاعمل الرسول في شاكلة جوادهِ المهماز وسار ينهب الارض نهباً الى ان بلغ هرجر فاعطاهُ الرسالة وترجل ليبدل حصانهُ لانهُ لم يكن يقوى على الرجوع بمثل السرعة التي جآء بها . وما كاد يفعل حتى ناداهُ هرجر وكان وحدهُ في خيمتهِ فقال لهُ عُد حالاً الى فلكونر وقل لهُ يتبع اوامري الاولى واعلمهُ انهُ مسؤولٌ عن كل تأخير يحدث بسبب مخالفتهِ الاوامر كما اني سألقي عليهِ تبعة هذا التردد الذي ابداهُ مرتين . فحيَّا الرسول وعاد كوميض البرق الى ان ادرك فلكونر فانهى اليهِ جواب القائد الشفاهي وهو لا يدرك شيئاً غير ما سمع . اما فلكونر فلم يظهر عليهِ اقل تأثر وامر فرسانهُ للحال باستئناف المسير فكانوا يتقدمون شيئاً فشيئاً الى جهة الدراويش وهؤلآء عنهم غافلون

وبعد مدة قصيرة ارتفع من جوانب البلدة صراخ يصم الآذان وعلت الغوغآء من جهات مختلفة ثم سمع فلكونر اطلاق البنادق فتأكد ان القتال قد انتشب ورأى ان الدراويش الذين كانوا في تلك البقعة قد ابصروهُ ومن معهُ من تلك الشرذمة القليلة فأقبلوا عليهِ وهم كالنمل الزاحف فلم يفقد شيئاً من شجاعتهِ فأصدر امرهُ الى رجالهِ بمداومة المسير والاستعداد للقتال . ولم يكن الا قليل حتى أُطلقت اول رصاصة اصابت الرسول الذي كان قد بعثهُ فلكونر الى هرجر فخرَّ صريعاً فشهر فلكونر حسامهُ باليد الواحدة ومسدسهُ بالاخرى وخاض برجالهِ ذلك البحر العجاج سابحاً بين نيران البنادق ومطر الحراب . واحدقت برجالهِ الدراويش فكان نحو عشرة منهم لكل فارس وحانت منهُ نظرة الى اتباعهِ فوجد انهُ لم يبقَ منهم سوى اقل من نصفهم فنزلت ضبابة كثيفة على عينيه وايقن بالهلاك ولكنهُ صمم على عدم التقهقر وكانهُ قد فقد عقلهُ فكانت ضرباتهُ تلمع يميناً وشمالاً كالبرق الخاطف وهو ثملٌ بهول ذلك الموقف

ودخلت جيوش السردار عكاشة من الجانب الآخر مطاردةً الدراويش بعد ما

هزمتهم شر هزيمة وملأت الارض من قتلاهم وابصر السردار العدد الغفير منهم المحيط برجال فلكونر القلائل فتعجب لوجودهم هنالك وامر للحال بعض الفرق ان تسير لنجدتهم ففعلت ورأى الدراويش ذلك فتقهقروا تاركين وراءهم عددًا كبيرًا من القتلى والجرحى وكُتبت لفلكونر الحياة فبقي ومعهُ نحو العشرين من رجالهِ فقط . ومرَّ السردار بجانبهِ فقال لهُ ستؤدي حسابًا يا هذا عن وجودك هنا بدون امري وستجاوب عن شهدآء طيشك هؤلآء ثم وخز جوادهُ وكرَّ راجعًا الى بقية الجيش

ولما انتهى القتال واستراحت الجنود استدعى السردار قوادهُ واثنى على همتهم ونشاطهم بما يستحقون وكان من جملتهم هرجر فاصابهُ من الثنآء اعظمهُ ومن الاكرام اكثرهُ لان جنودهُ كانت قد ابلت البلآء الحسن في تلك المعركة . ثم استُدعي فلكونر فسألهُ السردار عن سبب هجومهِ مع رجالهِ القلائل الى حيث رآهُ وقد فقد ثلاثة ارباع فرسانهِ . فقال فلكونر لا استطيع يا مولاي ان اجيبك عن هذا سوى انني عملت بالاوامر المعطاة لي . فقال السردار واي احمق اعطاك مثل هذه الاوامر . قال رئيسي هرجر ثم اخبرهُ بما حصل تمامًا . وكان هرجر مصغيًا فقال لا صحة لرواية فلكونر البتة ولم تبلغني رسالةٌ منهُ قط بل انني تعجبت جدًّا حين قام الجيش للهجوم ولم ارَ فلكونر بجانبي . فاحتدم فلكونر غيظًا وعلم انهُ لا واسطة لهُ يستشهد بها على صحة روايتهِ فان اوامر هرجر كانت شفاهية وقد انكرها والرسول الذي بعثهُ اليهِ قتل فلم يبقَ لهُ الا كلامهُ فقط وقد كذَّبهُ هرجر فحرق الأُرَّم غيظًا وصمت . فقال السردار اما انا فما عليَّ الا ابلاغ ما جرى الى نظارة الحربية وهي تحكم بما تراهُ

ولما عادت الجنود الانكليزية الى انكلترا دُعي هرجر وفلكونر الى مجلس عسكري وجرت المحاكمة فذكر فلكونر انهُ نبَّه قائدهُ اولاً شفاهًا ثم برسالةٍ مكتوبة وان ذاك الحَّ عليهِ بالتقدم وهددهُ بالمعاقبة اذا خالف الامر فلم يسعهُ الا الانقياد لاوامره . وكان هرجر ينكر تمام الانكار ما نسب اليهِ ويؤكد انهُ لم تبلغهُ الرسالة ولا عرف شيئًا من ذلك . وكان قد اثر على المجلس ما كتبهُ السردار من المدح والاطرآء لهرجر وكان كما ذكرنا من الاسر المنظورة فاصدر المجلس حكمهُ بتجريم فلكونر

فاجبروهُ ان يستعفي من الخدمة ولبث هرجر في عز ونعيم يزداد تقدماً ويترنح بخمرة انتصارهِ وكوفئ بمنحهِ لقب لرد فايقن انهُ نال منتهى السعادة والصفآء . وعاد فلكونر الى بيتهِ وقد اخفى في صدرهِ احرّ من نار الجحيم ولكنهُ علم ان ليس بيدهِ حيلة

. . . .

كان في مدينة لندن سيدةٌ من اشرافها تدعى اللادي هيوبرت اشتهرت بحسن الصفات ومحبة الناس وكانت من حين الى آخر تولم في قصرها الولائم فيجتمع على مائدتها عدد غفير من الاصدقآء والمعارف يتمتعون بأنس اللادي هيوبرت ومآ كلها اللذيذة الى الصباح . وحدث انها دعت يوماً جماعة من معارفها الى وليمة حسب العادة فلما جاءَت ساعة العشآء اخذ المدعوون في الحضور وهي تستقبلهم بما فطرت عليهِ من حسن الحديث وطلاوته . وكان من جملتهم الجنرال هرجر وزوجتهُ وشقيقتها وهي فتاة تدعى املي لم تتم الخامسة عشرة من سنيها وهي من ذوات الجمال الساحر فقابلتهم اللادي هيوبرت وادخلتهم الى ضيوفها . ولما ازف وقت الجلوس الى المائدة فتح الباب ودخل آخر المدعوين وهو المستر فلكونر . وكانت اللادي هيوبرت لا تجهل ما بينهُ وبين اللرد هرجر ولكنها سهت عن ذلك عند ارسال الدعوات ولم تنتبه الى غلطها الاّ بعد دخول فلكونر فما وقعت عينها عليهِ حتى صبغ الاحمرار وجنتيها ولكنها تمالكت واستقبلتهُ ببشاشتها المعهودة وهي تود ان يتم ذلك الاجتماع على صفآء . اما هرجر فلما تبين فلكونر قطب حاجبيهِ وعاد الى كرسيهِ متنكراً ولم يملك نفسهُ من اطلاق بعض الشتائم المرَّة في حق اللادي هيوبرت لجمعها بينهُ وبين عدوهِ فلكونر . اما فلكونر فراى بنظرةٍ واحدة جميع الحضور فحيَّا بخفض الراس بكل عظمةٍ ثم اخذ يتكلم مع اللادي هيوبرت . وكانت املي جالسة بقرب شقيقتها زوجة هرجر فلما سمعت اسم فلكونر ورأتهُ وثبت اليهِ بسرعة البرق فاتحةً ذراعيها وحيتهُ بمنتهى الشوق والانعطاف ثم اخذت تعاتبـهُ على مسمع الجميع على عدم زيارتهِ لهم مع انهُ كان لا يمر اليوم الواحد الا تراهُ مرتين او اكثر في بيتها . اما اللادي هيوبرت فاسرعت الى تلافي الامر ودعت الجميع الى المائدة فقاموا وكان

من نصيب فلكونر ان اتفق جلوسهُ بجانب املي وكانت هي تعدّ تلك الساعة من ساعات السعادة فأخذا يتنازعان اطراف الحديث . ولما فرغوا من الطعام خلت املي باللادي هيوبرت وقالت لها قد لاحظت ان بين زوج اختي وفلكونر نفورًا فاحب ان أعرف سببهُ . فقالت اللادي هيوبرت نعم ان ما لاحظتهِ لصواب يا عزيزتي وساطلعكِ على هذا الامر في فرصةٍ اخرى . فقالت املي كلا بل اودّ معرفتهُ الآن . ورأت اللادي هيوبرت ان ضيوفها مشتغلون بالعابٍ ومسامرات فلم ترَ مانعاً من اجابة طلب املي وقصت عليها ما يأتي قالت

كانت شقيقتكِ يا املي آية الجمال والظرف فكان الشبان يكثرون من التردد لطلب يدها ولكنها رفضتهم جميعًا ولم تكن تميل الاّ الى اثنين صديقين وهما هرجر وفلكونر وكانت تحبهما محبةً متساوية ولا تدري من تفضل من الاثنين فبقيت تعللهما بالمواعيد وهي لا تجزم باختيار واحدٍ منهما . وكان فلكونر يتردد عليكما كما ذكرتِ ويأخذ لكِ الهدايا الكثيرة رغبةً في التقرب الى شقيقتكِ ونيل رضاها . فلما طلبت الجنود للحرب السودانية سافر هرجر وفلكونر في جملتهم واذ ذاك توقعت شقيقتكِ ان يكون في هذه السفرة فصل الخطاب اذ لا بدّ من حدوث ما يمتاز بهِ الواحد عن الآخر . ولما عادا وجرت المحاكمة العسكرية بخصوص رسالةٍ ادعى فلكونر انهُ ارسلها الى هرجر واقسم هذا انها لم تصلهُ أُمر فلكونر ان يقدم استعفاءهُ من الجندية ثم ترقى هرجر الى رتبة جنرال ونال لقب لرد فلم يعد من الصعب على شقيقتكِ ان تجزم باختيارهِ ولم تلبث بعد ذلك حتى صارت اللادي هرجر . ويهون عليكِ بعد هذا يا عزيزتي ان تعلمي بنفسكِ سبب نفور فلكونر من هرجر بعد ما سلبهُ حبيبتهُ وفاز عليهِ بالترقي . فقالت املي بربكِ اخبريني قصة الرسالة ايضًا . فتلت عليها اللادي هيوبرت القصة كما جاءَت في اول هذه الرواية وكانت املي تصغي بمزيد الانتباه وعيناها سابحتان بالدموع شاخصتان الى حيث كان فلكونر جالسًا وحدهُ يقلب صفحات مجلدٍ ضخمٍ

وعادت اللادي هيوبرت الى ما بين ضيوفها واذا بهرجر قد قام مستأذنًا في

الانصراف بحجة انهُ مدعوٌّ مع زوجتهِ الى اجتماع لا بد من حضورهِ فخرجا واخذا معهما املي . ولما خلت اللادي هرجر في عربتها مع زوجها وشقيقتها اخذت توبخ املي على تصرفها في مقابلة فلكونر وقالت لها بما انكِ لا تزالين تسيئين التصرف في المجتمعات العمومية فلا تذهبين معنا الليلة بل نوصلكِ الى البيت ونذهب وحدنا . اما املي فلم تنبس ببنت شفة وكانت افكارها مشتغلةً بما سمعتهُ عن فلكونر من اللادي هيوبرت وما جرى بينها وبينهُ من الحديث في اثنآء الطعام

ووقفت العربة امام قصر اللرد هرجر فنزلت املي ودخلت الى غرفتها واتمّ اللرد وزوجتهُ مسيرهما الى حيث دعيا . ولما بلغت املي غرفتها خلعت ثيابها ولكنها لم تجد عندها ميلاً الى الرقاد فجلست مدةً مفكرةً ثم خطر لها ان شقيقتها سمحت لها منذ بضعة ايام في انتقآء بعض الملابس القديمة من غرفتها وترميمها لتقدمها الى سوق الشفقة . فانارت مصباحها ونزلت الى تلك الغرفة ففتحت خزانة وجعلت تسلي نفسها بتفقد الثياب المذكورة . وما زالت على هذه الحال الى ان وقعت بين يديها بذلة عسكرية من الكتان الاسمر وهي البذلة التي كان يلبسها هرجر وقت الحرب . فقالت الآن علمت مقدار محبة شقيقتي لزوجها فلو كان هرجر زوجي لما سمحت بهذه البذلة قط ولحرصت عليها اشد الحرص . ولكن ما لنا ولهذا فماذا استطيع ان افعل بهذا الثوب . ثم جعلت تقلبهُ وتراجع افكارها في كيفية ترميمهِ ثم مدت يدها الى جيوبهِ مخافة ان يكون هرجر قد اودع فيها شيئًا يحتاج اليهِ ودخلت يدها الى جيبٍ مشقوقٍ بدون انتباه فشعرت بملامسة قطعةٍ من الورق مجعدة فاخرجتها وهي لا تدري ما هي ثم فتحتها وما وقع نظرها عليها حتى وثبت عن الارض كأن قوة كهربآئية قد رفعتها وحدّقت ببصرها الى تلك الورقة فقرأت فيها رسالة موقعًا عليها باسم فلكونر ومرسلة الى هرجر وعلمت انها نفس الرسالة التي انكرها هرجر كما مرَّ

ولما عاد هرجر وزوجتهُ الى البيت رأت اللادي هرجر نورًا في غرفة ملابسها فدخلت فوجدت شقيقتها في الحالة التي ذكرناها . فقالت لها ماذا تفعلين هنا يا املي اظنكِ تنتقين الثياب التي وضعتها لكِ على حدة . قالت نعم يا شقيقتي ولم يكن

ذلك منكِ انتِ بل هو الهامٌ من الله جعلكِ تنبهيني الى هذا العمل لكشف القناع عن الرجل الذي يقسم بشرفهِ كذبًا ولارجاع شرف البريء المتهم ظلمًا وعدوانًا . فقالت اللادي هرجر وقد عجبت من لهجة شقيقتها ماذا تعنين يا املي وما مرادكِ بهذا الكلام . قالت مرادي ان اسألكِ هل تعتقدين بصدق كلام زوجكِ وان فلكونر لم يرسل اليهِ تلك الرسالة في واقعة عكاشة في السودان . قالت نعم اعتقد ذلك ولكن ماذا تريدين بهذا السؤال . قالت اريد ان اخبركِ انهُ قد وضح الحق وقد وجدت الرسالة بعينها في ثوب زوجكِ المخاتل هذا وان لديَّ البرهان الواضح الذي يظهر للملأ اجمع خيانة هرجر وكذبهُ و برآءة فلكونر وحقهُ المهضوم ظلمًا

وكانت اللادي هارجر كمن يرى حلمًا فوقفت حينًا صامتةً ولكنها رأت ثوب زوجها العسكري وارسالة في يد شقيقتها فلم يبقَ عندها ريب في حقيقة ما تسمع وادركت بلحظة واحدة عظم الامر فقالت لشقيقتها بصوتٍ خافت يا املي تعسًا لي فقد وقعت بين يدي رجلٍ لا شرف لهُ ولكن قد قضي الامر فينبغي ان لا نهدم بيتنا بيدنا فهاتي هذه الرسالة لنلاشيها . فقالت املي ضاحكةً نلاشيها ؟ كلا بل نعطيها لفلكونر ليستعين بها في اثبات برآءتهِ . فقالت اللادي هرجر اذكري يا املي ان بذلك خراب اختكِ وخراب صهركِ الذي اعتنى بكِ وتعيشين في بيتهِ . قالت اجل واذكر رجلاً مظلومًا بنيتم اساس مجدكم الكاذب على انقاض صدقهِ ونزاهتهِ . ولما قالت هذا طوت الرسالة واخفتها في صدرها تحت ثوبها ورأت ذلك شقيقتها فهجمت عليها لتأخذها منها رغمًا عنها وحصل بين الشقيقتين عراك شديد كادت تتغلب فيه اللادي هرجر على شقيقتها الضعيفة لو لا انها عثرت برجل كرسيٍّ كان بجانبها فهوت الى الارض واغتنمت املي الفرصة فوثبت الى خارج الغرفة واغلقت الباب ورآءها بعنف

ولبثت اللادي هرجر واقفةً تفكر فيما يجب ان تصنع ثم ذهبت لاتباع املي فلم تجدها في غرفتها و بعد ان بحثت في كل انحاء القصر بهدوءٍ لكي لا يعلم زوجها علمت من البواب انهُ رآها خارجة من باب الحديقة . فطار رشد اللادي هرجر وتأكدت ان املي ستتوجه توًّا الى فلكونر وتسلمهُ الرسالة . فاستدعت خادمتها واخبرتها انها ذاهبة

في امرٍ مهمٍ جدًّا واوصتها ان لا تدع للرد يعلم بغيا بها ثم خرجت وما سارت قليلاً حتى وجدت عربةً ركبتها وتوجهت الى الفندق الذي يقيم فيهِ فلكونر وكان فلكونر لا يزال مستيقظًا فقرعت باب غرفتهِ بيدٍ راجفة ولما فتح ورآها استغرب مجيئها في تلك الساعة. فقالت لهُ اسأَلك اول كل شيء ان تعذرني على قدومي الآن بهذه الصفة وانما جئتك لامرٍ فيهِ موت وحياة فهل جآءت شقيقتي املي الى هنا. فقال مستغربًا كلاّ واي شيءٍ يستدعي مجيئها. فوقفت هنيهةً مترددة ثم صممت عزمها فاقتربت من فلكونر واخذت بيدهِ وقالت ايها الشهم ساخبرك بسرٍّ عظيم وانما ارجو ان تقسم لي انك لا تسعى في خرابي والحت عليهِ فاقسم لها. فقالت قد احببتك كما كنت تعلم وكان حبي لك اقوى منهُ لسواك اضعافًا ولكنني انبهرت بارتقاء هرجر ومجدهِ ففضلتهُ عليك غيرانني اواه قد نلت الآن جزاء حماقتي وغروري فكفاني قصاصًا مرًّا ان اكون زوجة رجلٍ ليس لهُ من الشرف الا الاسم الظاهر واما داخلهُ فمكر وخداع. ثم قصت عليهِ ما جرى بينها وبين املي في تلك الليلة واخبرتهُ بوجود الرسالة وانها تأكدت ان الرسالة وصلت الى هرجر في وقتها وانهُ عن غير تروٍ جعَّدها بيديهِ ووضعها في جيبهِ فسقطت الى داخل البطانة وانهُ ولا بد قد تاكد فقدها والاّ لما ابقاها وتجاسر ان ينكرها. ثم جثت على ركبتيها امام فلكونر وانحدرت دموعها على يدهِ وقالت بربك يا فلكونر اصفح لي واعفُ عن زوجي ليس لاجلهِ بل لاجلي ولا تجرّ عليَّ الويل والاهانة فان كلمةً واحدة منك بعد وصول الرسالة الى يدك ترمي بنا من ذروة العز الى وهدة الخزي والعار بل توصلني الى قبري باكرًا. فتأثر فلكونر من دموعها وانهضها وقال لا. اني لا اغتنم هذه الفرصة للانتقام بل انتقم منكما بسكوتي. اما سعيي لتبرئة نفسي فقد مضى وقتهُ ولا يهمني اعادتهُ بعد خسارتي اياكِ وقد كنت اظنكِ سعادتي في هذه الحياة الدنيا. وقد نسيت ماضيَّ ونسيتكما من زمنٍ طويل فلا تذكريني بما لا احبّ والآن ارجو ان تعودي من حيث اتيتِ واطلب اليك ان تجتهدي في ان لا نتقابل بعد الآن. فضغطت اللادي هرجر على يد فلكونر وكانت دموعها تمنعها عن الكلام ثم حنت رأسها مودعةً وخرجت

ولم تمضِ بضع دقائق على فلكونر حتى سمع باب غرفتهِ يقرع ثانيةً ففتح واذا باملي داخلة اليهِ بثياب النوم وقد القت على كتفيها شالاً خفيفاً فقابلها فلكونر باسماً. فقالت لهُ اعذرني ايها العزيز لمجيئي اليك بهذه الحالة فاني قد وجدت لك ما يثبت براءَتك ويعيدك الى اسمى مركزٍ تؤملهُ فخذ هذه الرسالة التي كتبتها الى هرجر الخائن وقد وجدتها في ثوبهِ هذه الليلة. ثم اخرجت الرسالة من صدرها وناولتهُ اياها فمد يدهُ واخذها منها ثم ادناها من شمعةٍ متقدة بجانبهِ ولم يتركها حتى سقطت برمتها رماداً. اما املي فوقفت حائرة لا تدري لعلهُ كان قد فقد عقلهُ. ورأى فلكونر منها ذلك فقال كانت شقيقتكِ هنا قبلك يا املي وقد اقسمتُ لها ان لا اسعى في خراب بيتها وزوجها وفضلاً عن ذلك فلم تعد تهمني براءَتي وقد عزمت على مغادرة انكلترا والذهاب الى بلادٍ بعيدةَ انسى فيها مسقط رأسي ومعارفي كما نسوني. اما انتِ فلا ارى كيف اعبر لكِ عن شكري العظيم ايها الملاك الطاهر. فصمتت املي هنيهةً ثم قالت بصوتٍ خافت تذهب والى اين وماذا يحلّ بي الان وشقيقتي لا تقبلني بعد الان في بيتها. قال وماذا افتكرتِ ان تفعلي اذاً. قالت ان ابقى واياك فقد احببتك يا فلكونر ولن انسى ايام كنت صغيرة وكنت تزورنا وتحملني بين ذراعيك. قال نعم واما الان فلا يمكن ذلك فانتِ في مقتبل حياتكِ وانا قد وخط رأسي الشيب. قالت ما لي ولهذا فانا احبك ولن افارقك بعد الان

. . . .

وفي نفس الاسبوع تعجب معارف الطرفين اذ قرأوا في جرائد لندن خبر اقتران فلكونر باملي شقيقة اللادي هرجر وسافر العروسان على الاثر لقضاء شهر العسل. ومع ان العلاقات الودية بقيت غير محكمة العرى بين العديلين والشقيقتين فان سرّ الرسالة لم يزل مكتوماً الى ان سمح هرجر بنشرهِ وهو على فراش الموت